عرض كتاب

21 درسًا للقرن الحادي والعشرين

21 Lessons for the 21st Century

تأليف: يوفال نوح هراري Yuval Noah Harari

عرض: أبو بكر خالد سعد الله

أستاذ بقسم الرياضيات، المدرسة العليا للأساتذة، القبة

khaled.sadallah@g.ens-kouba.dz

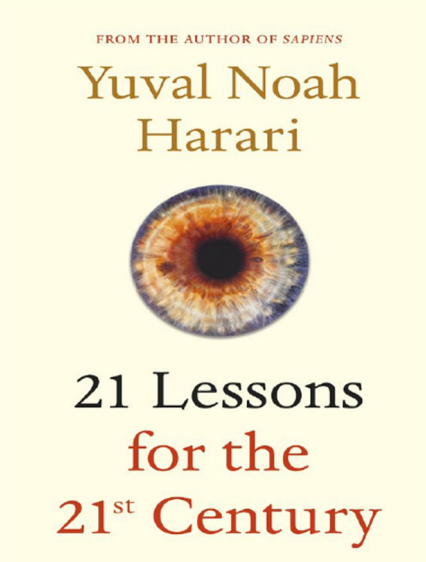

الطبعة 1: صادرة عن دار Spiegel & Grau، نيويورك، 2018

1. مقدمة

صاحب هذا الكتاب هو الأستاذ يوفال نوح هراري المولود عام 1976 في ضواحي حيفا بفلسطين المحتلة، وأصل عائلته اليهودية من لبنان وأوروبا الشرقية. يعمل حاليا في الجامعة العبرية بالقدس كأستاذ لمادة التاريخ. ونال شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد البريطانية حيث اختص في تاريخ العصور الوسطى والتاريخ العسكري. ألف هراري عدة كتب (بالإنكليزية) كانت الأكثر مبيعا في العالم، تُرجم بعضها إلى أزيد من 30 لغة عالمية، منها اللغة العربية. له معتقدات بوذيّة بعيدة عن الأديان السماوية التي لا يؤمن بها حسب ما يُقرأ عنه. وجاءت أغلب هذه الكتب تدعو إلى التأمل في الماضي وفي مستقبل البشرية. وبطبيعة الحال، لا يمكن أن يتّفق القارئ مع كثير مما جاء في الكتاب، ومع ذلك فهناك من الأفكار والرؤى المستقبلية في الكتاب ما هو جدير بالتعمق فيها فهي تدعونا إلى التأمل لمحاولة تصور جوانب مما سيحلّ بنا وبالعالم مستقبلا. ومن هذا الباب اخترنا عرض هذا المؤلّف في هذا العدد.

كيف يمكننا حماية أنفسنا من حرب نووية، ومن الكوارث البيئية، والاضطرابات الناجمة عن التطور التكنولوجي؟ ماذا يمكننا أن نفعل حيال وباء الأخبار الزائفة؟ وماذا ينبغي أن نعلّم أطفالنا؟ هل لا نزال قادرين على فهم العالم الذي أنشأناه من حولنا؟ تلك هي أبرز الأسئلة والقضايا التي يخوض فيها الكاتب.

2. المعلومات الغثة

يستهل الكاتب كلامه بالتأكيد على أن العالم مليء بالمعلومات الغثّة والغامضة والكاذبة، ولذا ينبغي البحث عن الوضوح وحقائق الأمور. فمن الناحية النظرية، يمكن لأي شخص أن يشارك في النقاش حول مستقبل البشرية، ولكنه ليس من السهل بلوغ وضوح الرؤية والتمسك بها. إننا لا ندرك في كثير من الأحيان أننا لا نلّم بالقضايا التي تعدّ أساسية. ثم إن أغلب الناس لا يملكون القدرة على التحقق من المعلومات الواردة عليهم لأن لديهم من المشاكل الملحّة اليومية ما يحول دون ذلك: الالتحاق بأماكن عملهم، رعاية أطفالهم، رعاية أوليائهم المسنين. وللأسف، فالتاريخ لا يرحم: إذا حسم تاريخ البشرية قراره أثناء غيابك -لأنك منشغل بأمورك الخاصة وبذويك- فلا مهرب لك ولهم من تحملّ تداعيات تلك القرارات. إن في ذلك ظلما كبيرا، لكن من قال إن التاريخ عادل؟

لم يهتم الكاتب بالسرد التاريخي لقضايا عاشتها وتعيشها المجتمعات، بل فضّل اختيار دروس وعبر. وهذه الدروس لا ينهيها بإجابات بسيطة، بل المراد منها هو تحفيز التفكير ومساعدة القرّاء على المشاركة في بعض الحوارات الكبرى الراهنة. وفي هذا السياق، يصرّح الكاتب أن مضمون العديد من فصول الكتاب جاء استجابة لأسئلة طُرحت عليه من قبل قرائه والصحفيين وبعض الزملاء. وقد نُشرت قبل صدور الكتاب أجزاءٌ منه في صيغ مختلفة، مما أتاح للمؤلف فرصة تلقي التعليقات وصقل حججه.

تتناول فصول الكتاب موضوع التكنولوجيا، وكذا السياسة، والدين، والفن، وحكمة الإنسان مرورا بحماقاته. والمسألة الجوهرية في كامل فصول الكتاب هي: ماذا يحدث في العالم الحالي، وما المعنى العميق لتلك الأحداث؟ وفي هذا السياق، يطرح الكتاب عديد الأسئلة من صميم واقعنا مثل:"ماذا نفعل لمواجهة تلوث بيئتنا بالأخبار الزائفة؟ هل هناك عودة إلى الدين؟ أي حضارة تهيمن على العالم (الغرب، الصين، الإسلام)؟ هل ينبغي على أوروبا أن تُبقي أبوابها مفتوحة أمام المهاجرين؟ هل يمكن للقومية أن تحلّ مشكلة التغيّر المناخي ومشكلة عدم المساواة بين البشر؟ ".

3. محتويات الكتاب

جاء الكتاب في نحو 340 صفحة تضمنت 5 أقسام وزّعت فيها الفصول الواحد والعشرين، كل فصل يحمل درسًا للقرن الحادي والعشرين. ها هو توزيع هذه الفصول:

القسم الأول: التحدي التكنولوجي	11. الحرب: لا تستهن أبدًا بحماقة البشر
1. خيبة الأمل: تأجيل نهاية التاريخ	12. التواضع: أنت لست محور العالم
2. العمل: عندما تكبر، قد لا تجد وظيفة	13. الله: لا تنطق باسم الله عبثًا
3. الحرية: البيانات الضخمة Big Data تراقبك	14. العلمانية: اعترف بظلك
4. المساواة: من يملك البيانات يملك المستقبل	**القسم الرابع: الحقيقة**
القسم الثاني: التحدي السياسي	15. الجهل: أنت تعرف أقل مما تظن
5. المجتمع: البشر لديهم أجساد	16. العدالة: إحساسنا بالعدالة قد يكون متقادمًا
6. الحضارة: في العالم، هناك حضارة واحدة فقط	17. ما بعد الحقيقة: بعض الأخبار الكاذبة تدوم إلى الأبد
7. القومية: المشاكل العالمية تحتاج إلى حلول عالمية	18. الخيال العلمي: المستقبل ليس كما تراه في الأفلام
8. الدين: الخالق يخدم الأمّة الآن	**القسم الخامس: الصمود**
9. الهجرة: بعض الثقافات قد تكون أفضل من غيرها	19. التعليم: التغيير هو الثابت الوحيد
القسم الثالث: اليأس والأمل	20. المعنَى: الحياة ليست قصة
10. الإرهاب: لا تفزع	21. التأمّل: راقب فقط

4. على علماء الاجتماع دقّ ناقوس الخطر

صرح المؤلف بخصوص التكنولوجيا أنه لا يهدف في كتابه إلى تغطية جميع تأثيرات التكنولوجيات الجديدة رغم أن التكنولوجيا تَعِد بالكثير، بل هدفه هو تسليط الضوء على التهديدات والمخاطر. وبما أن الشركات والمبتكرين الذين يقودون الثورة التكنولوجية يميلون بطبيعتهم إلى التغنّي بإنجازاتهم، فإن من واجب علماء الاجتماع والفلاسفة والمؤرخين دق ناقوس الخطر وشرح الطرق التي قد تسوء بها الأمور بشكل مروّع.

وهنا يلاحظ أن العولمة تُخضِع سلوكنا وأخلاقنا الشخصية لضغوط غير مسبوقة. فكل واحد منا يجد نفسه عالقًا في العديد من الشبكات العنكبوتية العالمية التي تقيّد حركتنا. بمعنى أن الرتابة اليومية التي نعيشها في محيطنا الضيق تؤثر على حياة الناس والحيوانات في الجانب الآخر من المعمورة. قد تؤدي التكنولوجيا المعلوماتية والتكنولوجيا البيولوجية قريبًا إلى إقصاء مليارات البشر من سوق العمل، مع تقويض الحرية والمساواة. وقد تخلق خوارزميات البيانات الضخمة (Big data) ديكتاتوريات رقمية تحتكر فيها السلطةَ كمشةٌ من الأفراد. وعندئذ سيعاني معظم الناس ليس من الاستغلال فحسب، بل من شيء أسوأ من ذلك بكثير، وهو أنهم سيصبحون عديمي الفائدة في مجتمعاتهم!

ويربط المؤلف التكنولوجيا بالجانب السياسي ويتساءل بعد استعراض التحديات التي نواجهها: هل يمكن لمهندسي فيسبوك استخدام الذكاء الاصطناعي أو الآلة لإنشاء مجتمع عالمي يحافظ على حرية الإنسان والمساواة؟ أم ينبغي علينا قلب مسار العولمة الحالية وإعادة السلطة إلى "الدولة القومية"؟ أو ربما العودة إلى الوراء بشكل أعمق، بحثًا عن الأمل والحكمة في جذور التقاليد الدينية ؟

وواصل المؤلف تحاليله للتحديات التكنولوجية غير المسبوقة ولِما ينجرّ عنها من عواقب وخلافات سياسية عميقة، فلاحظ أن البشرية رغم ذلك قادرة على الارتقاء إلى مستوى الظروف التي تعيشها إن تغلبت على مخاوفها واعتمدت مزيدًا من التواضع في مواقفها. وهنا أشار إلى مواجهة كل أشكال التهديدات على مستوى الأوطان والعالم، وإلى خطر الحروب العالمية، وكذلك التحيزات والكراهية التي تشعل هذه الصراعات.

وفي موضوع البحث عن الحقيقة ومفهومها، تساءل: كيف يمكننا فهم التطورات العالمية والتمييز بين الأفعال السيئة والعدالة. هل يستطيع الإنسان العاقل (Homo sapiens) إعطاء معنى للعالم؟ وهل هناك حدود واضحة بين الواقع والخيال؟

يتناول جزء كبير من الكتاب أوجه القصور في الرؤية الليبرالية للعالم والنظام الديمقراطي. والكاتب لا يعتبر أن الديمقراطية الليبرالية أسوأ من أنظمة الحكم الأخرى، بل يعتقد أنها النموذج السياسي الأكثر نجاحًا لمواجهة تحديات العالم الحديث. وذلك رغم أنه قد لا يكون هذا النظام مناسبًا لكل مجتمع في كل مرحلة من تطوره. بمعنى أن الديمقراطية الليبرالية أثبتت –حسب رأي الكاتب- جدارتها لدى عدد كبير المجتمعات والمواقف مقارنة مع البدائل الأخرى. ومع ذلك يؤكد المؤلف، أنه عند النظر في التحديات الجديدة التي تواجه العالم اليوم، من الضروري إدراك حدود الديمقراطية الليبرالية وكيفية تكييف مؤسساتها الحالية وتحسينها. ومن هذا المنظور يتأسف الكاتب كثيرا على المناخ السياسي الحالي ملاحظا أن أنصار هذا النظام مستعدون للحديث عن مشاكله، لكنهم لا يتحمّلون أي نقد موجّه إليهم. ومن ثمّ يصبح التفكير النقدي بشأن مستقبل جنسنا البشري أكثر خطورة.

5. المقاومة قبل فوات الأوان

منذ تسعينيات القرن الماضي، غيّرت شبكة الإنترنت العالم أكثر من أي عامل آخر، لكن الذين قاموا بهذه الثورة هم المهندسون وليست الأحزاب السياسية أو جهات أخرى. ولا زالت المجتمعات تحاول استيعاب ما أصابها جراء هذه الثورة،

وهي شبه عاجزة عن مواجهة الصدمات القادمة، مثل صعود الذكاء الاصطناعي وثورة ما يسمى بـ"سلسلة الكتل" (Blockchain) التي تمثل آلية متقدمة لقواعد البيانات تسمح بمشاركة المعلومات بشكل شفاف داخل شبكة أعمال. كما أن أجهزة الحاسوب جعلت النظام المالي معقدًا إلى درجة لا يمكن لمعظم البشر فهمه. ومع تطور الذكاء الاصطناعي، قد نصل قريبًا إلى مرحلة لا يتمكن فيها أي إنسان من فهم الشؤون المالية. فما تأثير ذلك على العملية السياسية؟ هل يمكن تخيّل حكومة تنتظر –قبل البتّ في أمرها- موافقة خوارزمية حسابية على ميزانيتها أو على إصلاح ضريبي جديد؟

في الوقت نفسه، قد تعيد شبكات "سلسلة الكتل" اللامركزية والعملات المشفرة مثل "البيتكوين" تشكيل النظام النقدي العالمي بالكامل، مما يجعل الإصلاحات الضريبية الجذرية أمرًا لا مفرّ منه. وعلى سبيل المثال، قد يصبح من المستحيل -أو من غير المجدي- فرض ضرائب على الدولار إذا ما توقفت معظم المعاملات عن استخدام العملات الوطنية، أو حتى النقود بوجه عام. قد تجد الحكومات نفسها مضطرة إلى ابتكار أنواع جديدة تمامًا من الضرائب، مثل فرض ضريبة على المعلومات، التي ستكون أهم أصل اقتصادي وربما الموضوع الوحيد لكثير من المعاملات. لكن هل سيتمكن النظام السياسي في العالم من حلّ هذه الأزمة؟

لقد أصبح رجل الشارع يشعر بشكل متزايد أن لا قيمة له في مجتمعه أو محيطه. والجدير بالذكر، حسب رأي المؤلف، أن هناك تفاخرا -في مؤتمرات التكنولوجيا العالية ومراكز التفكير الحكومية- باستعمال ألفاظ غامضة مثل العولمة، وسلسلة الكتل، والهندسة الوراثية، والذكاء الاصطناعي، وتعلم الآلة، مما يجعل رجل الشارع يعتقد أن كل هذه الألفاظ وما تحتويه من معان لا تعنيه شخصيًا. وهنا يذكّر الكاتب بأن الجماهير تمرّدت، خلال القرن العشرين، ضد الاستغلال وسعت إلى ترجمة دورها الاقتصادي الحيوي إلى قوة سياسية. أما اليوم، فتخشى تلك الجماهير من ألا تكون لها أيّ قيمة، وهي تتطلع لاستخدام ما تبقى لديها من قوة سياسية قبل فوات الأوان.

6. حول موضوع الهجرة

عندما تناول المؤلف موضوع الهجرة والاندماج في الوسط الذي هاجر إليه الإنسان، كان يضرب أحيانا مثلا بالجزائريين في فرنسا، فيقول بخصوص الهجرة: "أصل النقاش هو الفجوة الموجودة بين الجدول الزمني الشخصي والجدول الزمني الجماعي. فمن وجهة نظر المجتمعات، تعدّ فترة أربعين عامًا فترة قصير، إذ من الصعب أن نتوقع من مجتمع أن يمتصّ بالكامل مجموعات أجنبية خلال أربعة عقود". وهنا يلاحظ أن الحضارات السابقة التي استوعبت المهاجرين الأجانب وجعلتهم مواطنين متساوين مع غيرهم من المواطنين - مثل روما الإمبراطورية، والخلافة الإسلامية، والإمبراطوريات الصينية، والولايات المتحدة - حققت هذا التحوّل على مدى عدة قرون، وليس على مدى بضعة عقود.

أما إذا نظرنا لمشكل الهجرة على مستوى الفرد المهاجر فإننا ندرك أن أربعين عامًا "قد تكون مدة أبدية". بمعنى أن الطفلة المراهقة المولودة في فرنسا بعد عشرين عامًا من هجرة أهلها سترى الوضع الاندماج بصورة أخرى... "فإن الرحلة من الجزائر العاصمة إلى مرسيليا [لهؤلاء الأولياء] تندرج تحت خانة التاريخ القديم. لقد وُلدت هذه المراهقة هنا [في مرسيليا]، مثل جميع أصدقائها، وتتحدث باللغة الفرنسية بدلاً من العربية، ولم تطأ قدمها الجزائر أبدًا. ففرنسا هي الوطن الوحيد الذي عرفته. وفجأة، يأتي من الناس من يخبروها أنها ليست في وطنها وأنها من بلد لم تعش فيه أبدًا؟".

7. المطلوب التواضع وعدم استنقاص إسهام الغير

ركّز المؤلف على موضوع التواضع واعتراف كلّ منا بنصيب إسهام الآخر في الحضارة الإنسانية. وأشار إلى أن أن كل شعب من شعوب العالم يميل إلى الاعتقاد بأنه يمثل مركز العالم، وأن ثقافته هي محور التاريخ البشري. وهكذا يعتقد العديد من اليونانيين أن التاريخ بدأ مع هوميروس، وأفلاطون، وأن جميع الأفكار والاختراعات المهمة نشأت في أثينا. "ويردّ

عليهم القوميون الصينيون بأن التاريخ في الواقع بدأ مع الإمبراطور الأصفر وسلالتي شيا وشانغ، وأن كل ما حققه الغربيون أو المسلمون أو الهنود ليس سوى نسخة باهتة من الإنجازات الصينية الأصلية".

وكذلك يزعم القوميون الهندوس الذين يؤكدون أن أجدادهم هم من كانوا وراء "صناعة الطائرات والقنابل النووية". ومضى المؤلف في سرد مزاعم مماثلة لدى العرب والمسلمين وغيرهم. وفي الغرب اليوم، حدّث ولا حرج: فلا شك "أن البريطانيين والفرنسيين والألمان والأمريكيين والروس واليابانيين والعديد من الجماعات الأخرى مقتنعون بأن البشرية كانت ستغرق في الجهل والهمجية والفساد الأخلاقي لولا الإنجازات الباهرة التي حققتها أممهم"!

وقد ذهبت بعض الشعوب إلى حدّ الاعتقاد بأن مؤسساتهم السياسية وممارساتهم الدينية ضرورية لقوانين الفيزياء نفسها. ومن الطرائف أن شعب الأزتيك العريق في المكسيك يعتقد، على سبيل المثال، اعتقادًا راسخًا بأنه "لولا التضحيات التي تُقام سنويًا عندهم، لما أشرقت الشمس ولانهار الكون بأسره".

وضرب المؤلف مثلا آخر حول قومه اليهود، فقال: "كان السؤال الأكثر شيوعًا بين القراء الإسرائيليين [يقصد قرّاء مؤلفات الكاتب] هو: لماذا بالكاد ذكرتُ اليهودية في سرد لتاريخ الجنس البشري؟ ولماذا توسعتُ في الحديث عن المسيحية والإسلام والبوذية بينما لم أخصص سوى بضع كلمات عن الديانة اليهودية والشعب اليهودي؟ هل تعمدتُ تجاهل إسهامهم الهائل في تاريخ البشرية؟ هل كانت لدي أجندة سياسية خفيّة تدفعني إلى ذلك؟"

ويواصل بالقول: "هذه الأسئلة تُطرح بشكل طبيعي عند اليهود الإسرائيليين الذين نشأوا منذ رياض الأطفال على فكرة أن اليهودية هي نجم التاريخ البارز. يكمل الأطفال عادة اثني عشر عامًا من التعليم دون الحصول على أي فكرة واضحة حول المجريات التاريخية العالمية. فلا يتم تعليمهم شيئًا يُذكر عن الصين أو الهند أو إفريقيا، وحتى عندما يتم التطرق إلى الإمبراطورية الرومانية أو الثورة الفرنسية أو الحرب العالمية الثانية، فإنها تُعرض كأجزاء منفصلة من أحجية".

ثم يوضح: "القصة الوحيدة المتماسكة التي يقدمها النظام التعليمي الإسرائيلي تبدأ بالعهد القديم العبري، ثم تتواصل مع حقبة الهيكل الثاني، وتنتقل بين المجتمعات اليهودية في الشتات لتبلغ ذروتها مع صعود الصهيونية والمحرقة وتأسيس دولة إسرائيل. فيغادر معظم التلاميذ المدرسة مقتنعين بأن هذه هي الحكاية الرئيسية في تاريخ البشرية بأكمله. وحتى عندما يتعلمون عن الإمبراطورية الرومانية أو الثورة الفرنسية، يكون النقاش غالبًا حول كيفية تعامل روما مع اليهود أو وضع اليهود القانوني والسياسي في الجمهورية الفرنسية" !

وفي ختام هذا العرض يبدي الكاتب رأيه: "الأخلاق والفن والروحانية والإبداع هي قدرات إنسانية عالمية متجذرة في حمضنا النووي، ويعود أصلها إلى العصر الحجري في إفريقيا". ولذلك يرى أن ما تلوّكه مختلف الشعوب في العالم هو مجرد "أنانية فظّة". لكنه يضيف: "شخصيًا، هذا الأمر [الأنانية الفظة] مألوف عندي لأن اليهود – وهم قوْمي– يعتقدون أيضًا أنهم أهم شيء في العالم. أُذكرْ أي إنجاز أو اختراع بشري، وسيسارعون إلى ادعاء أن الفضل يعود إليهم. وبحكم معرفتي الوثيقة بهم، أعلمُ أنهم مقتنعون بذلك. فذات يوم، حضرتُ درسًا مع مدرب يوغا في إسرائيل. وكان يشرح في مقدمته، بكل جدّية، أن اليوغا اختراع جاء به إبراهيم [عليه السلام]، وأن جميع الوضعيات الأساسية مستمدة من أشكال حروف الأبجدية العبرية! ... وأن إبراهيم [عليه السلام] علّم هذه الوضعيات لابن إحدى زوجاته"، وأن هذا الأخير نقلها إلى الهند!

8. المطلوب التأمل

إذا كانت العلوم تواجه صعوبة في فكّ شفرات أسرار العقل، فسبب ذلك، إلى حد كبير، هو عدم توفر أدوات فعالة. يميل الكثير من الناس، بما في ذلك العديد من الباحثين، إلى الخلط بين العقل والدماغ. ومع ذلك، فإنهما في الحقيقة شيئان مختلفان تمامًا. فالدماغ هو شبكة مادية من الخلايا العصبية، والروابط العصبية، والمواد الكيميائية الحيوية. وهناك تقدم لافت للأبحاث حول الدماغ بخطوات عملاقة بفضل المجاهر الدقيقة، والأجهزة الماسحة، والحواسيب

القوية. ومع ذلك، فإن المجهر أو الماسح لا يسمحان برؤية العقل. هذه الأدوات تمكّننا من اكتشاف الأنشطة الكيميائية الحيوية والكهربائية في الدماغ، لكنها لا تتيح لنا الوصول إلى التجارب الذاتية المرتبطة بهذه الأنشطة.

أما العقل فهو تدفّق من التجارب الذاتية، مثل الألم والمتعة، والغضب والحب. يفترض علماء الأحياء أن الدماغ يُنتج بطريقة ما العقل، وأن التفاعلات الكيميائية الحيوية لمليارات الخلايا العصبية تنتج بطريقة أو بأخرى تجارب مثل الألم والحب. لكننا حتى الآن، لا نعرف كيف يظهر العقل من الدماغ. لماذا أشعر بالألم عندما ترسل مليارات الخلايا العصبية إشارات كهربائية بتكوين معيّن، ولكنني أشعر بالحب عندما يكون التكوين مختلفًا؟ لا نعرف شيئًا عن ذلك. ومن ثمّ، فحتى لو كان العقل ينشأ فعلاً من الدماغ، فإن دراسة العقل لا تعادل، اليوم، ما بلغته دراسة الدماغ من نتائج.

مع تطور التكنولوجيا في العصر الحديث، يبرز أمران:

- أولاً: مع التطور البطيء، من عهد السكاكين الحجرية إلى عهد الصواريخ النووية، أصبح من أكثر الأمور خطورة زعزعة النظام الاجتماعي في أي مكان من المعمورة.
- ثانيًا: مع التطور البطيء، من عهد الرسومات الجدارية إلى عهد البث التلفزيوني، أصبح من السهولة بمكان خداع الناس.

في المستقبل القريب، قد تستولي الخوارزميات على زمام الأمور، وستقرر من نحن، وماذا يجب أن نعرف عن أنفسنا. في الواقع، لا يزال لدينا الخيار لبضعة عقود. فإن بذلنا الجهد، يمكننا أن ندرس حقًا من نحن... وإن أردنا أن نستغل هذه الفرصة، فمن الأفضل أن نبدأ ذلك الآن وليس غدًا.

****

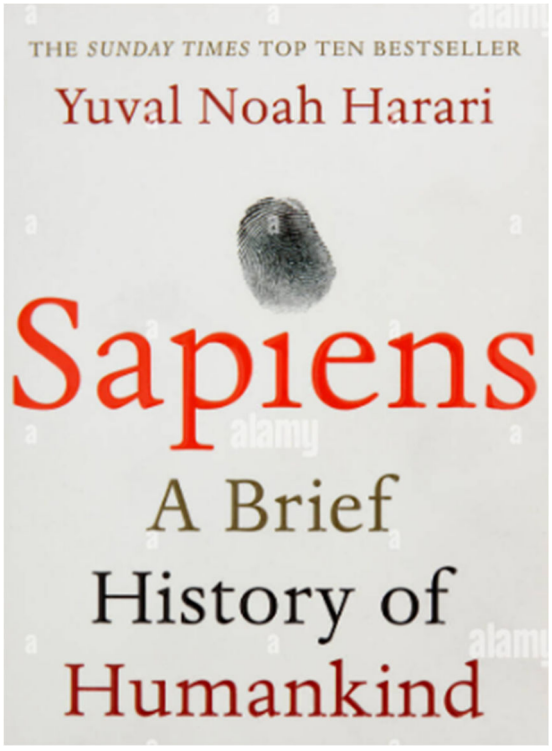

كتاب للمؤلف صدر عام 2011

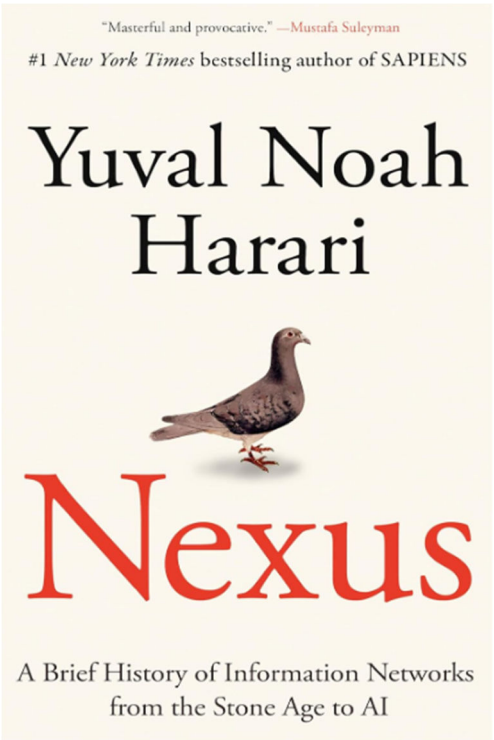

كتاب للمؤلف صدر عام 2024